

قَبْلَ أَنْ تَبْتَاقَ الْفَجْرَ

للأستاذ محمد سعيد العريان

— « أبي ا »

— « سلمان ا »

— « ما أريد يا أبي

أن أكون بصد اليوم

قطين النار ا »

— « وى ا ما تقول

يا بني ؟ لقد نذرتك للنار

قبل أن تخرج إلى الحياة

فأنت هبة الرب إلى

أبيك ، وأنت وفاء للرب

بما نذرت . أضلالاً بصد

هدى ، وكفراً بصد إيمان ... ؟ »

— « إن روحي لتتمرد على هذه السبوية ؛ فما أرى هذه النار

المعبودة تملك لي نفعاً أو تمنه ؛ إننى أنا أوقدها وأذكيها ، ولو شئت

لصببت عليها ذنوباً من ماء يردّها رماداً وطباً ا »

— « أى 'بني' ، إنه دينك ودين آباك . أى 'نازية نرت'

بك فتمردت على ربك ؟ »

— « هيات منى ما تريد يا أبي ، وبرغى هذا المعصيان ا

إن في السماء إلهاً يقتضيني حقه من العبادة والتقديس ، وإن

صوته ليهتف بي في سدفة الليل ، وفي وحدة التلق ، وفي ظلمة

اليأس ؛ فما أجد لي طاقة على الافلات من صوت الله ... ا »

جثا الشيخ الأصهباني بين يدي ربه مطاطناً رأسه في ذلة

وانكسار ، وبسط ذراعيه إلى النار في ضراعة واسترحام يسأل

الهدى لولده الذي يؤثره بالحب من دون ما يتمتع به من زينة الحياة .

وراح الذهب التراقص بعكس على وجهه المتفضّن أضواء تكشف

عما يحتاج في نفس الشيخ من حسرة وأسى

وعلى مقربة من مجلس الشيخ جلس فتاه الأمر « سلمان »
ممتداً رأسه بين راحتيه وسبح في أحلامه . كان ما يزال يرن
في أذنيه صدى تلك الأناغم الندية التي سمعها منذ قريب في معبد
المسبحية على أطراف المدينة ، فشنل بها عما أرسله أبوه لقضائه
من حاجته... وهفّت نفس الفتى إلى زورة ثانية لرهبان المعبد ،
يستمتع فيها بما استمتع منذ ليال من عذب الأناشيد وحلو النغم ،
وبما يسمع من أحاديث الرهبان عن الرب الموجود في كل مكان
ولا تراه العين ...

وغدا الفتى مع الصبح على الكنيسة ، يشهد مع الرهبان
صلاتهم ويستمتع إلى أناشيدهم . لقد عاش قطين النار في الجوسية
بضع عشرة سنة لم يحس فيها بمثل هذا الجلال الروحاني الذي يغمره
وهو يستمتع إلى أناشيد النصرانية بين جدران هذا المعبد القائم
على حدود الصحراء . فما فرغ الرهبان من صلاتهم حتى دلف
الفتى إلى كبيرهم يسأله أن يعقد بينه وبين هذا الدين آصرة ...
وردت الراهب على كتف الفتى وهو يقول : « لله هذا الايمان في فتى
مثلك ريان المود لم تفتنه مباهج الحياة عن معرفة الرب الأعظم ..
ما اسمك يا فتى ؟ »

— « سلمان الفارسي ا »

— « لياركك الله يا سلمان ولتتحك التوفيق والهدى ا »

واعتنق سلمان النصرانية عن إيمان وتق ؛ ولكن الفتى لم
يقنع بما أفاء الله عليه حتى يعرف أين أصل هذا الدين فيسمى إليه
وفارق الفتى أصهبان وخلف وراءه مولده وحرّباه وأبأ له
جاء وسلطان ومال ، لم يكن أحداً أحبّ إليه من ولده . وتلفت
الفتى إلى وراءه ، فتجدرت على خديه دمتان وهو يقول : « وداعاً
يا بلادى الحبيبة ، وداعاً لا أدري متى ألقاك منه إلا أنت يا ذن
الله ... ا » وتلاشت آخر كلماته في زفرة حزينة ، ثم طأطأ رأسه
ومسح دمه واستأنف سيره إلى دمشق ، إلى حيث يعرف أصل
هذا الدين ...

والتي سلمان وأسقف الكنيسة في دمشق ، فلزمه يشتم
إليه ويأخذ عنه ويصلى معه ؛ ولكن سلمان لم يجيد في الأسقف
ما كان ينتظر أن يجيد في رجل نذر نفسه لله ؛ لقد كان رجل

الله لا شريك له ؛ فاطمأنت نفوسهم على قلق الحياة ، واستراحت قلوبهم على شنب الفتنة ، فاسمعوا آذانهم عما ابتدئ الرهبان في الدين وما زادوا وتقصوا ، فبقوا على المسيحية الأولى حنفاء لله ، يدعون إلى الله ما قدروا على الدعوة ، أو يلزمون صوامعهم لتسييح الديان

واستجاب الله دعاء « سلمان » فوصل بهم حبله ليهدوه سبيل الرشاد
كانوا أربعة تفرقت بهم البلاد : فراهب في دمشق ، وراهب في الموصل ، وثالث في نصيبين ، ورابع في عمورية من أرض الروم . قد تقدمت بهم السن حتى أشرفوا على الآخرة ، ولكنهم جدد حيراص على الحياة ، لأن لهم في الحياة أمنية موروثة يستشرفون إليها من بعيد

ولقي « سلمان الأصهباني » أولهم في دمشق فلزمه ، فلما صفا بينهما المورد جلس الراهب يتحدث إلى فتاه :
— « أي بني ، إنها فتنة الحياة للأحياء ، ولكن صبراً صبراً يا بني ؛ إن شماعة من النور تلوح من بعيد ، وإنه ليوشك أن يشرق بعدها صبح أزهر . هنا من هذه الصحراء سينبتق النور الأعظم الذي يغمر الدنيا ويشرق بالخير والسلام على البشرية كلها ، إنه نبي قد أظل زمانه ... يا ليتني فيها جذع ... »
واتفض الفتي وقد غمرته موجة من السرور فهزت أعطافه فال على الراهب وقد أمسك بكلتا يديه يهزها في فرح ونشوة وهو يقول :

« ... نبي قد أظل زمانه ؟ من هذه البادية ؟ حدثني يا أباي إن حديثك لينفذ إلى قلبي بكل مسرات الحياة : »
واتسم الراهب وربت على ظهر الفتي وهو يقول : « صبراً ، صبراً يا بني ... إن حديث هذا النبي لمسطور في فؤادي ، وإنني به لمؤمن قبل مبمته ، إنها لأمنية الحياة يا بني أن أعيش حتى أراه ... »

ولكن الراهب الشيخ لم تمهله المنية حتى يحقق أمله ، فلم يلبث أن ذهب إلى ربه
عاد السلام والأمن إلى قلب الفتي الفارسي ، وتشمعت ظلمات الشك والحيرة في نفسه ، ولكن الأمل الجديد الذي بمشته في

سوء يأمر بالصدقة ويرغب فيها ، فإذا اجتمع إليه شيء منها اكتنزته لنفسه فلا يتصدق به ، فإن المال عنده لا كداس ، وإن المساكين لعلى الأبواب يستشدون الأكف ويميتون على الطوي ؟
وضاقت نفس الفتي بما وجدت فلم يجد حيلة لنفسه مما يرهق نفسه ؛ لقد فر من الجوسية إلى دين البر والرحمة والسلام ، فما وجد عند أهله شيئاً من البر والرحمة والسلام ؛ وعاد التردد إلى الفتي وشغلته أشجانه فما يستبين طريق الرشاد ...

— « أي ربي ، إنك لتسمع دعائي ، وإنني لأراك في قلبي ، ولكنني لا أجد سبيلاً إليك . في بيت النار سلخت بضعة عشر عاماً من الشباب ألتس الزلني إليك بين البخور واللب فما بلغت إليك ؛ وفي معبد المسيحية بين الهيكل والصليب وتماثيل القديسين ركمت ألتس الزلني إليك فما بلغت إليك ... تنزهت يا رب أن تأمر بعبادة النار وإنها لجر ودخان ، وتقدست يا إلهي أن تكون عبادتي لك سجوداً للتصاوير وركوعاً للصليب ، وخشوعاً لتمثال المنذراء ، وحرصاً على جمع المال في القلال ليحرم منه الفقير والمسكين ... »

« ربي ، سألتك الهدى فأرّ سبيلي ا »

وكانت الفتنة تعصف بعصفها في كل مكان ، والشهوات يتسلط سلطانها على كل نفس ؛ والناس في الشرق والغرب ، في فارس وقسطنطينية ، وفي بغداد ودمشق ، وفي الحبشة وبلاد العرب ، تعيش عيش البهم : لا وازع من دين ، ولا حرج من ظلم ؛ فلم ينج من فتنة الشهوات إلا من عصم الله ... والفتي « سلمان » من أشجانه في هم ناصب ، يتوزعه الشك واليقين ، ويتماوره الإيمان والكفر ، وبرواح القلق بين نفسه في وحدته واجتماعه ؛ فما يجد له منجاة من أشجانه إلا الصبر والاستسلام حتى يجد لنفسه فرجاً من ضيق ...

وكان ثمة أربعة من الرهبان جمعهم على دين الرب عقيدة راسخة ، وقلوب عامرة ، وإيمان بالله وطيد ؛ وكان لهم في كل عام مزار يجتمعون إليه أياماً ثم يذهب كل إلى واديه . كانوا من الصلاح والخير وصفاء النفس بقية من الحواريين المخلصين ، عرفوا دين السلام عرفان الحق ، فأقاموا على هدى المسيح خالصاً يبسون

وأترأهيب الموصل جوار الله ، وخلف الفتي الفارسي
وليس معه إلا ربه ؛ فأزعم الرحلة نائلة إلى نصيبين
وأقام « سلمان » عند راهب نصيبين ما شاء الله أن يقيم ،
لا يشغله من دنياه إلا ذكر الله ، وأمل جيش يخفى به قلبه
الكبير ، أن يرى ذلك النبي الكريم الذي تنميه الصحراء لينشر
الخصب والرخاء في ربوع البشرية ويفسّل نفوس الانسانية من
أدران الشهوات
ثم هاجر هجرته الرابعة إلى عمورية بعد ما فارق صاحب
نصيبين إلى جوار ربه ...

« ... أيّ بني » ، والله ما أعلم اليوم أحداً على مثل ما كنا
عليه من الناس أسرك أن تأتيه بمدى ، ولكنه قد أظل زمان
نبي ، وهو بمبعوث بدين ابراهيم - عليه السلام - يخرج
بأرض العرب ، مهاجره إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل
به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين
كتفيه خاتم النبوة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ... »
وأقام سلمان بأرض عمورية ما شاء الله وهو يعمل لماعه ،
وإن الأمل المذب في لقاء النبي العربي ليداعبه في يقظته وفي
أحلامه ؛ واجتمع له مما يعمل بقرات وغنيمة ، فظل يتربص
حتى مر به نفر من تجار العرب ، فسأوهم أن يمطيهم بقراته
وغنيمته ويحملوه إلى بلاد العرب ... وسار الركب منطلقاً إلى
الصحراء يحمل سلمان إلى أرض اليمام ...
يا للفتى مما احتمل في سبيل الله !

خمس رحلات بلا زاد ولا مال ، وليس له من أمل في دنياه
إلا ربه ، وكل شأن من شؤون الحياة يتصاعق في عينيه حتى أهله
وطننه وجاء أليه ... !

المثير تشيره الرياح إلى الحلقوم والخياشيم ، وذرات الرمل
الساخنة تلطم الوجوه بمثل أطراف الأبر ، والشمس الحارة ترسل
من أشعتها سهاماً من نار تشوي الوجوه والأقفاء ، والماء في
القرب يوشك أن يجف من حر الصحراء ، والحادي يحدو
البُعران في طريق لم يذلل بعد للأسفار ، والفتى على بعيره
شارد الفكر مذهب اللب ...

هذه رحلته الخالصة في سبيل الله ، وقد خلف الدنيا كلها

نفسه كلمات الشيخ لم تدع له أن يستقر ، فقرر رحلة ثانية من
دمشق لعله يعرف جديداً من راهب الموصل عن النبي الذي أتى
وقته ليرسم للانسانية الضالة حدود سعادتها في معاني البر والرحمة
والمساواة ؛

فتى لذن العود غص الاهاب ، يهاجر هجرتين في سبيل
الله ، من أصهان إلى دمشق ، ومن دمشق إلى الموصل ، وليس
معه مال ولا زاد ، إلا الايمان والتقى وقلب عامر بحجة الله ؛ وقد
خلف وراءه المال والأهل والسيادة ، وأباً لم يكن أحد أحب
إليه من ولده !

— « سيدي ! »

— « من أنت يا فتى ؟ إن في وجهك لَنَصْرَةَ أبناء
الدهاقين والسادة ؛ ولكن عليك من وعثاء السفر مثل أبناء
السييل ! »

— « سيدي ! ... »

— « سمعاً يا بني ! »

— « أنا رسول (فلان) إليك - رحمه الله - أتأذن

لي أن أقيم عندك لأخذ عنك من أمور ديني ... ؟ »

— « سهلاً وكرامة يا ولدي ، بارك الله عليك ! »

— « أبي ، إن الفتنة لتعصف عصفها ، وإن شهوات الناس

تبلغ بهم مبلغ الحيوان ، أفتري للانسانية منقذاً من ضلالها
يهديها سواء السبيل ؟ »

— « أراك تعرف بعض ما أعرف يا بني ؛ وإنك لتستشرف

إلى أمل قريب . إن نبياً قد أظل أوانه ، إن لم يكن فكأن

قد ... يا ليت لي فسحة في العمر حتى أراه فأؤمن به ! إن موجة

الاصلاح ستمد مداها عما قريب من هذه الجزيرة العريية حتى

تفيض على البشرية جميعها من برها خيراً ورحمة ، وستغسل هذه

الموجة أدران البشرية وتمسح على قلبها بالطهر القدسي حتى يتنلى

العالم سلاماً ومحبة ...

« سيمتد بك العمر يا بني - إن شاء الله - حتى ترى

هذا النبي ، فلا تلبث في اتباع دعوته ، إنه يدعو إلى خير الدنيا

وخير الآخرة ... أراك ستعرفه يا بني حين تلقاه إن وصفت

لك من خبره ... ؟ »

وراءه لا يقيم لها وزناً ولا يخطر له على بال ، لأنه مقبل على مهبط
الوحى وأرض النبوة ... والحادى يحدو وفى نبراته حنين ، وفى
نشاته حزن وأسى ؟ فهتفت الفتى وقد هاج الحداء ذكرياته :

« يا لأبى الشيخ الحكيم ! يا لوطنى الذى فارقت منه منذ
سنوات ولا أدرى متى أعود إليه ... ارب ، فى سبيلك هجرى
وأليك وجهت وجهى ، فاكتب لى الكرامة والظفر بقاء نبيك
المختار ، وأسبغ رحمتك يارب على أصهبان . إن فى أصهبان أبى ...
وإن لى بأصهبان هوى الحبيب إلى الحبيب ... »

ومضى الركب إلى غايته ، فلما بلغ وادى القرى ، همس
الركب بعضهم إلى بعض يتأصرون على الفتى الفارسى ؛ فباعوه
من رجل يهودى عبداً ...

لقد بلغوا بالفتى حيث أراد ولكنهم جعلوا غلاً فى رقبته ،
والفتى راضٍ صابر ، لأنه مؤمن بقضاء الله ، لأن له أملاً يريد
أن يبلغ إليه فلا عليه مما يناله فى سبيله ... رحمة الله له !

وأرسل الفتى أذنه وراء كل اثنين يتهاوسان ، لعله يسمع نبأ
عن النبي العربي ... ويبلغ فى النهاية ما أراد : هذه هى الأرض
الموعودة ، أرض بين حرتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى .
إنها هى ، فأين هو ؟ فإنه لى رأس عزق يميل فيه ذات يوم
لسيده بمض العمل ، وسيده جالس تحته ، إذ جاءه النبأ :

هذا رجل قادم يتحدث إلى سيده حديثاً ذا بال : « إن بنى
فلانة مجتمعون اليوم بقاء على رجل قدم عليهم من مكة يزعم
أنه نبي ... ! »

يا للبشرى ! أياكون هو النبي الموعود ؟

وسمعا الفتى فانتفض انتفاضة أو شك منها أن يسقط على
سيده ، فما هو إلا أن تمالك حتى نزل عن النخلة يستمع النبأ
— « ما ذا تقول يا رجل ؟ »

هكذا أقبل سلمان على القادم يستنبه وإن سيده ليشهد .
فما إن سمعه يسأل حتى غضب فلكمه لكمة شديدة وهو يقول :
« مالك ولهذا ؟ أقبل على عمالك ! »

قال سلمان : « لاشيء ، إنما أردت أن أستنبهت عما قال ! »
ثم دار على عقبه ليخفى عبرة تنحدر على خده ، وإن صدره
ليجيش بحواطف شتى . فلما كان المساء جمع شيئاً من طعام

كان له ثم ذهب إلى محمد بقاء :

« سيدى ، إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ، وممك أصحاب
لك غرباء ذرو حاجة ، وهذا شئى . كان عندى للصدقة فرأيتكم
أحق به من غيركم ... ! »

وتناول النبي الكريم من يد الفتى الفارسى ما قدم إليه ،
فدفعه لأصحابه لم يأخذ شيئاً منه . وتحققت الفتى أمانة ...

ثم انصرف الفتى لجمع شيئاً وعاد إلى رسول الله يقول :
« سيدى ، إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية
أكرمتك بها ... ! »

فد النبي إليها يده فأكل وأكل أصحابه معه . وتحققت
أمانة ...

وطنى شمور الفرح على سلمان حتى أنساه قيد الرق وذلل
الإسار ، فسار خلف النبي يتبعه لينظر منه شيئاً قد بقى من أمارات
النبوة . فإن النبي ليحشى إذ انحسر رداؤه عن ظهره فرأى ...

وتحقق الوعد المأمول فما تلبث الفتى حتى أكب على النبي
الكريم يقبله ويكي ...

وأمن سلمان الفارسى بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه
وسلم . وانبثق الفجر الذى كان يرقب شروقه منذ سنوات
وسنوات ، وأضاء فى قلبه النور الذى غمر البشرية كلها فحدث

لها حدود سعادتها ورسم لها غايتها . ولم يمض سلمان حتى انتشر
الصبح وأشرق على ربوع فارس وأصهبان ، وانتظمت الدولة
الإسلامية فصارت جزءاً من الوطن الإسلامى الذى يعيش فيه
سلمان الفارسى

وما زال النور ينتشر وينتشر حتى عم أقطار الأرض . ومات
محمد بن عبد الله ولكن شريعته ظلت باقية تمدد مداها ذات اليمين
وذاوات الشمال ، حتى عبرت المحيط ، وجازت الجبال ، وحطمت
الحدود ، وأزالت السدود ، ورسمت حدود (الدولة الإنسانية)

التي ما زال المصلحون يعملون جاهدين ليلفوا إلى تحقيقها كي يعم
السلام الأرض وينتشر الأمن والرخاء ؛ ولن يبلغوا إلى تحقيق
هذه (الوحدة الإنسانية) إلا أن يعملوا على شريعة محمد . حينئذ

تمحى الجنسيات ، وتزول المصيبات ، ويذهب الطغيان ، ويميش
الناس إخواناً متحابين كما ينبنى أن يعيش أبناء الإنسانية

« شبرا » محمد مصعب الصديقي